محتويـــــات العـــدد

- تأصيل وتعريف .....
- مقدمة .....
- التوظيف الفني للمطابقة في تراثنا الشعري .....
- الكنعانيون معينيون من جازان .....
- وجه لثلاث مراءٍ الخيام كما قرأه البستاني ورامي والعريض .
- مضمرات الخطاب الغزلي عند علية بنت المهدي .....
- ابن سينا وخلود الروح .....
- تخريج قصيدة الحج والزيارة في رحلة أحمد بناصر الدرعي .
- مراحل تطور اللغة .....
- أصول الفقه عند الإمام الجويني .....
- محمود حسن إسماعيل.. قصائد مجهولة .....
- أسماء الكعبة المشرفة في الدرس اللغوي .....
- اتجاهات عروض الشعر الدوري .....
- النحو والمنطق تنافر أم تظافر؟ .....
- هؤلاء الشعراء ومعاركهم الزوجية..!! .....
- استنساخ الاستعمار القديم..؟! .....
- ابن خلدون وفلسفة الحكم – قراءة معاصرة .....
- السيرذاتي والتاريخي في تجربة ابن خلدون .....
- ابن خلدون بين الإبداع الفلسفي والتأسيس الاجتماعي ....
- التناص في الخطاب النقدي والبلاغي .....

جذور

العنوان

النادي الأدبي الثقافي بجدة
الإدارة: حي الشاطىء
جدة ص.ب (5919)
جدة (21432)
فاكسميلي: 6066695
هاتف: 6066122-6066364

JUDHUR

Literary & Cultural
Club Jedda
P.O. Box : 5919
Jeddah 21432
FAX : 6066695
Tel : 6066364 -
6066122
www.adabijeddah. com

مراحل تطور اللغة

معتصم زكي السنوي(*)

علم اللغة أو الفلسفة اللغوية، علم حديث نوعاً. ظهر في مطلع القرن التاسع عشر، وكان مظهره في صورة نحو تاريخي مقارن. ووضحت في القرن العشرين خصائص جوهرية للغات الرئيسة التي كانت تستخدمها الحضارات القديمة في العالم القديم وتحدد ما بينها من صلة وقرابة. وبالرغم من ذلك فقد ظل علم الغة علي حاله فترة طويلة. وحوالي سنة 1870م تأثر علم اللغة بنظريات «داروين»[1] والعلوم الطبيعية، وأدخل علماء اللغة – نذكر منهم «شليشر» على علم اللغة، مناهج جديدة قائمة على أن طبيعة التغيرات اللغوية هي نفس طبيعة التغيرات المشاهدة في العالم الطبيعي بل ذهب بعض العلماء إلى أن اللغات تتغير بفعل قوانين عمياء. وأخذ العلماء في الكشف عن القوانين التي تخضع لها لغة الإنسان في تطورها وارتقائها من حيث أصواتها، وقواعد تصريفها، وما إلى ذلك... وكان لزاماً أن يصل العلماء في تتبعهم لأصول اللغات ومراحل ارتقائها إلى تعبير الإنسان الأول ومنشئها، والأسس التي قام عليها التخاطب بالأصوات ذات الدلالات

(*) كاتب عراقي.

الوضيعة، وذهبوا إلى أن الظواهر اللغوية لا تسير وفقاً لإرادة الأفراد أو المجتمعات أو تبعاً للأهواء والمصادفات وإنما تسير وفقاً لنواميس لا تقل في ثباتها وصرامتها واطرادها وعدم قابليتها للتخلف عن النواميس الخاضعة لها ظواهرالفلك والطبيعة. فقد يكون في استطاعة الفرد أو في استطاعة الجماعة اختراع لفظ أو تركيب، ولكن بمجرد أن يلقى بهذا اللفظ أو بذاك التركيب إلى التداول اللغوي وتتناوله الألسنة يفلت من إرادة مخترعه ويخضع في سيره وتطوره وحياته لقوانين ثابتة لا يستطيع الفرد ولا الجماعة إلى تعويقها أو تغييرها سبيلاً. وتنتج عن المناهج الجديدة التفريق الواضح بين فقه اللغة – أي دارسة الوثائق المكتوبة ولغتها – وبين علم اللغة الذي يبحث في دارسة اللغة من حيث هي لغة، مكتوبة أو غير مكتوبة. هذه هي النتيجة التي وصل إليها العلماء في أواخر القرن التاسع عشر، والتي دفعت علماء العرب المتخصصين باللغة إلى أبناءالعربية مطبقاً عليها العربية[2]... وفي أوائل القرن العشرين ظهرت بشائر ما ذهب إليه علماء اللغة من المعاصرين من أن اللغة بناء. واستطاع «موريس جرامون» و«أنطوان مييه» و«جوزيف فتدريس» أن يثبتوا التغيرات الصوتية وغيرها من التغيرات اللغوية لا يمكن القول بأنها مماثلة للتغيرات التي تحدث في العالم الطبيعي، كما ذهب إليه علماء اللغة خلال القرن التاسع عشر، ولكنها تدل على تفاعل بين الدوافع النفسية الفسيولوجية وبين نظام اللغة الذي يطرأ عليه التغيرات. والتغيرات تحدث في الأفراد في اللاشعوري وعلى هامش الشعور. وقد أرجع «فان جينيكن» هذه الحقائق معتمداً على نتائج بحث «بيير جانيه» في التلقائية النفسية ووضح «مييه» الصفة الاجتماعية للنظام اللغوي، وبين أنها تطابق تعريف «دوركيم» للظاهرة الاجتماعية. فعملية التغير تحدث في الفرد، ثم تعمم في الجماعة «أما علة التغير، فتقع خارج الفرد وتنتمي إلى المحيط الاجتماعي. وتوصل «جول جييرون» إلى منهج جديد في علم الجغرافية اللغوية، وبين بكل وضوح أن التصور «الدارويني» للغات واللهجات على أنها

كائنات يمكن حصر عددها. وأنها تتطور تطور النبات والحيوان، تصور لا أساس له اطلاقاً، فالتطور اللغوي أشد تعقداً من هذا وذلك بسب التفاعل الدائم بين الاتجاهات الخارجية والداخلية[3] وأدت الآراء الجديدة إلى الاعتقاد بأن الحقيقة الهامة عن اللغة هي أنها تكون نظاماً في عناصره المختلفة يعتمد بعضها على بعض، وبأن هذا النظام لازم لفهم كل من التغير اللغوي، واللغة في ذاتها، والدور الذي تقوم به اللغة في المجتمع. والواقع أن ما يبدو لعقل المتكلم العادي ليس إلا النظام اللغوي، أما فكرة التغيراللغوي فأمر لا يطرأ له على بال وأظهر «فرديناند دو سوسور» أهمية الفصل بين هاتين النظريتين «بين اللغة من حيث هي نظام مستقر، وبين اللغة من حيث هي تغير لغوي، ثم وضع المناهج الخاصة في دراسة كل من النظريتين، ونبه على ضرورة الفصل بين اللغة باعتبارها لغة وبين الكلام، أي بين النظام اللغوي الذي تشترك فيه جماعة من الجماعات وبين الاستعمال الفعلي الذي يقوم به المتكلم باللغة لهذاالنظام. وذهب إلى أن اللغة ظاهرة اجتماعية وقال: إن اللغة نظام من العلامات التي تتكون من مسموع ومن تصور يرتبط بها ارتباطاً وثيقاً. وتتصف هذه العلاقة بأنها تحكمية، أي لا باعث طبيعي عليها، ولكنها تكتسب قيمتها عن طريق التقابل. وهو لا ينظر إلى اللغة على أنها جوهر بل على اعتبار صورة وأدت مناهج العلم الطبيعي إلى دراسة نطق الكلام دراسة دقيقة.. لا عن طريق الأذن فحسب، ولكن باستخدام آلات خاصة، وبذلك نشأ علم الأصوات التجريبي[4]. وحاول كثير من العلماء عن هذا الطريق أن يصفوا ويحللوا أكبر عدد ممكن من درجات النطق على اختلافها ودقتها، تلك التي يجدونها في اللغات واللهجات. وذلك دون اعتبار لوظيفتها. وكان (دو سوسور) قد أوضح قبلاً أن أية لغة لا تحتوي إلا على عدد محدود من نماذج الأصوات أو الوحدات الصوتية. وتوصل (تروبتسكوي) بعده الى تعريف دقيق للوحدة الصوتية على أنها أصغر وحدة للصوت تتخذ للتمييز بين المعاني، وحاول أن يحدد طبيعة النظم المختلفة

للوحدات الصوتية والعلاقات المتبادلة بينها، وأهمية صفاتها لفهم التغير اللغوي[5]، وبذلك ميز بين علم الأصوات اللغوية، أي علم الوحدات الصوتية وبين نطق الكلام. وكون «هيلمسلف» نظرية دلالية في اللغة على أساس أن اللغة صورة أكثر من كونها مادة. وهو يرمي إلى تعريف اللغة بما يقتضى فيه التناقض، ويكون بسيطاً وشاملاً. ويرى للوصول إلى غايته أن يستخدم منهجاً يستطيع به تحليل أي نص أو كلمات متتابعة ملفوظة طبقاً لهذه المبادئ، على أن تكون نتيجة التحليل تكوين النظام الكامن وراء النص، ووراء أي نص في اللغة المدروسة. ويهدف «هيلمسلف» بهذه العملية الاستدلالية إلى أن يجد منهجاً يمكن تطبيقه على اللغة عموماً. ووضع النقط الرئيسة للتحليل يحدد بها العلاقات القائمة بين العناصر، ومدى اعتماد بعضها على بعض. وذلك بتقسيم النص إلى مجموعات يأخذ في تضييق دائرتها حتى يصل إلى الوحدات الصغرى فيها. واللغة عنده مجموعة من العلاقات لا تهم الإبانة عنها.. فالقيم اللغوية لا تتأثر بالإبانة عن اللغة في الكلام أو الكتابة أو في الإشارات أو في إشارات الصم والبكم، وإنما هي مسألة حسابية. ولقي «هيلمسلف» معارضة من اللغويين المعنيين بالتغير التاريخي، ومن علماء الأصوات اللغوية. ومن أصحاب نظرية البناء، فعلماء الأصوات اللغويين وأصحاب النظرية القائلة بأن اللغة بناء خالفوه فيما ذهب إليه بأن الجوهر لا أهمية له في اللغة. وعلى المبادئ الرئيسة التي تقوم عليها نظريات علماء الأصوات اللغوية وجماعة «هيلمسلف» تقوم أبحاث كثير من علماء اللغة في العصر الحاضر.. وقامت مدرسة اللغويين الأمريكية وفي مقدمتها «بلومفيلد» و«إدوارد سابير» وقد ميز «بلومفيلد» بين دراسة اللغة من الناحية التاريخية وبين دراستها من حيث هي مستقرة، وكون نظرية بنائية في اللغة قائمة على معرفة واسعة بالحقائق اللغوية. و«بلومفيلد» من أصحاب نظرية السلوك الذين ينكرون كل عملية ذهنية ويذهبون إلى أنه لا يمكن ملاحظة شيء من هذا القبيل ملاحظة موضوعية، ويتجاهلون نتائج البحوث النفسية والطبية

الهامة التي ثبتت أمام الاختيار. وهم يتخلصون من المعنى على قدر الإمكان. وهو يرى أن معنى أية صورة من الصور اللغوية هو الحالة التي ينطق بها المتكلم بهذه الصورة. والأثر الذي يحدثه في السامع[6]. وهكذا بدأ «بلومفيلد» من الصورة اللغوية لا من معاني الصور، وكون على أساس مقاييس صورية خالصة، نظاماً كاملاً من الوحدات الصوتية ومن تحولاتها، ومن الصلات العامة والصور النحوية والصرف وأنواع الجمل. وتتبين فائدة هذا المنهج عند دراسته لغة تختلف عن لغة الباحث، وفي دراسة البناء اللغوي. ولكنه لا يصلح حين يطبق على التطور التاريخي، فالتغير اللغوي يبدأ في فرد، أو في طائفة قليلة العدد، ثم يعمم في الجماعة. وهذه التغيرات تتضمن عملية نفسية فسيولوجية هي عادة ذات طبيعة بسيطة. وأن هذه العملية هي التي تقدم الأساس اللازم لتصنيف التغيرات في الوحدات الصوتية. أما التصنيف الذي يقوم على أساس مقاييس خارجية تماماً، فلا يعدو أن يكون تسجيلاً أجوف للحقائق. وهو لا ينطوي على أي تفسير.

أما «إدوارد سابير»[7] فلم يكن سلوكياً، بل دل على أن الباحث اللغوي يجب أن يعول في بحثه على ما يسمى بالوعي اللغوي، وبين أن بعض العناصر الهامة للنموذج الاجتماعي للسلوك عناصر لاشعورية، وأن الذي يظهر لعقل المتكلم العادي بشكل لاشعوري متفاوت من حيث الدرجة، هو الوحدات الصوتية والنظام الذي تكون أكثر من الاختلافات في نطق الوحدات الصوتية، أي الاختلافات التي ليس لها أهمية وظيفية. واقترح «سابير» تصنيفاً بنائياً عاماً ممتازاً للنظم اللغوية والتي يمكن النظر إليها من حيث درجة تركيب الكلمات ودرجة استكمالها لهيئتها، ومن حيث الارتباط الآلي الذي تتحدد فيه عناصر الكلمات. ثم أكد «سابير» الصفة الاجتماعية للغة دون أن يهون من أهمية العامل الفردي الذي أورد عليه تعليقات قيمة... فعنده أن اللغة هي في الأرجح أعظم قوة من القوى التي تجعل من الفرد كائناً

اجتماعياً لا يمكنه بدون اللغة الاتصال الاجتماعي الدال، فضلاً عن أن وجود لغة مشتركة هو رمز قوي للتضامن الاجتماعي بين من يستخدمون اللغة، ولا تقتصر الدلالة النفسية لهذه الحقيقة على ربط لغات خاصة بقوميات، أو بهيئات سياسية أو بجماعات محلية أصغر، بل تتعدى ذلك، وظل «سابير» متشككاً في مدى اعتماد النموذج الاجتماعي على اللغة واعتماد اللغة على النموذج الاجتماعي يقول «إدوارد سابير»: «يأتي يوم تبدو فيه محاولة التمكن من حضارة بدائية دون الاستعانة بلغة بيئتها محاولة غير جدية، مثل جهود المؤرخ العاجز عن أن يفهم الوثائق الأصلية للمدنية التي يصفها» والواقع أن الشعور يزداد يوماً بعد يوم عند دارس المدنية بأهمية اللغة لفهم الحضارة حق الفهم. والنظام اللغوي تعبير عن طريقة جماعة من الجماعات في إدراك نفسها وما يحيط بها، وإن لم يكن هذا التعبير كاملاً. ومن العسير أن نفهم مدنية من المدنيات كل الفهم ما لم نعرف وسيلتها اللغوية في التعبير. ولا يمكن دراسة الإنسان ما لم ندرس كيفية تعبيره ولو تم التعاون بين العلماء للنهوض بعلم اللغة الذي يعتبر من أضبط الدراسات الإنسانية. لوصلوا إلى نتائج هامة في جميع ميادين الفكر الإنساني[8]. نقول ذلك لأنه بالرغم من الجهود التي يقوم بها علماء اللغة في العالم، فعلم اللغة لايزال في أوله ومسائله لاتزال تشغل الأذهان.

الهوامش

1) شارلس دارون: عالم إنكليزي اشتهر بنظريته في علم الأحياء المعروفة بنظرية «التطور» وقد أودعها كتابه «أصل الأنواع» الذي أصدره في عام 1859م. وقد أتبعه بكتاب «أصل الإنسان» وفيه يدعم هذه النظرية – ولد بمدينة (شروزبري عام 1809 وتوفي في عام 1882م).

2) د. نايف خرما – أضواء على الدراسات اللغوية المعاصرة/ سلسلة عالم المعرفة – دولة الكويت – أيلول 1978 – ص 85.

3) د. خليل ياسين/ منطق اللغة – نظرية عامة في التحليل اللغوي/ مجلة كلية الآداب – جامعة بغداد – العدد (5) 1962 – ص 25.

4) ليست اللغة مجرد أصوات يعبر بها فحسب، بل تمتاز بطائفة من المراكز المخية التي تشرف على مختلف مظاهر اللغة منها (مراكز إصدار الألفاظ، مراكز حفظ الكلمات المسموعة، مركز الكلام، مركز حفظ الأصوات، مركز الكلمات المرئية) وغيرها.

5) م.م. لويس/ اللغة في المجتمع/ ترجمة د. تمام حسان/ دار إحياء الكتب العربية/ بيروت 1959، ص 30.

6) محاضرات «ودن» تأملات في اللغة – تقديم – جومسكي – ترجمة د. مرتضى جواد باقر ود. عبدالجبار محمد علي/ دائرة الشؤون الثقافية/ وزارة الثقافة/ بغداد 1990 – ص 45.

7) قدر «أمييه وكوهين» عدد اللغات الحية في العالم – في كتاب لغات العالم (طبعة ثانية 1952) – بما يتراوح بين 2500 لغة و3500 لغة. وهذا ينطبق مع رأي (جراي) في كتابه أصول اللغة (طبعة ثانية) ومن بين هذه اللغات ما يقتصر التحدث به على عدد قليل من الناس نسبياً في حين أن لغات أخرى يتحدث بها ملايين من الناس.

8) ينصرف اللغويون في العصر الحديث عن البحث في نشأة اللغة الإنسانية وعن البحث في تطوراتها خلال العصور التي نجهل تاريخها، قانعين ببحث تلك التطورات خلال القرون التي رويت لها نصوص لغوية، وتطورت هذه النصوص إلى أن انحدرت إلينا الآن في صورة حديثة. ويعتمدون في بحث مظاهر التطور اللغوي إلى حد كبير على ما أصاب نصوص (السنسكريتية والإغريقية واللاتينية) وغيرها من اللغات التي نعرف أن معظم اللغات (الأوروبية/ الحديثة قد انحدرت منها وهم بصدد تطور البنية في الكلمات يؤكدون لنا أن الاتجاه العام في تطورها يميل نحو (تقصيرها واختصارها) فيقول (جسبرسن) في كتابه ما ترجمته Language its Nature, Development and Origin P. 330. (ليس هناك أدنى شك في أن الاتجاه العام لجميع اللغات هو نحو تقصير الصيغ لكلمات).